Coptology

ⲥⲁⲛⲱⲩ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

حوارات في تدبير المبتدئين

(٥)

محبة يسوع والتحوُّل الداخلي

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

محبة يسوع والتحول الداخلي

كان آخر الحوار السابق هو كيف تتحول الكبرياء إلى احترام الإنسان لنفسه، وإلى عزة النفس، وإلى كرامة أولاد الله الذين يتمسَّكون بالخير حتى الموت.

وعندما سألتُ: لماذا لم يكتب؟

قال لي: إن الكتابة سوف تقع في أيدٍ غير أمينةٍ، وسوف تتحول إلى منهج، وإلى ممارسة سلطان بالمعرفة، بينما هو يحرص على التلمذة الحقيقية.

سألت: ماذا، أو بالحري كيف تشرح أن الربَّ يُوصَف بأنه "مُحتَقَر ومخذول بين الناس"؟

أجاب: هو لم يسعَ إلى ذلك ولم يطلبه، بل هذه كانت مقاومة الفريسيين والكتبة وعلماء الشريعة الذين حقدوا عليه بسبب التعليم الذي اعتبروه مضاداً للشريعة. وعندما نرتل في القداس: "بذلتَ ظهرك للسياط وخديك أهملتهما للِّطمِ"، فهذا هو كيف عاش الابن الوحيد اخلاء الذات (فيلبي ٢: ٦)، فهو لم يمش عارياً في الأسواق يطلب من الناس أن يجلدوه، وهو لم يُلطَم إلا أثناء المحاكمة، وحتى في هذا قال: "إن كنت فعلت رديا فاشهد على الردي، وإن حسناً، فلماذا تضربني" (يوحنا ١٨: ٢٣). لم يتنازل الرب يسوع عن كرامته، ولم يتراجع لأن الخوف الذي عَبَرَ به في بستان جثيماني قد تحول بقوة المحبة إلى العطاء، ولذلك قال: "مملكتي ليست من هذا العالم" (يوحنا ١٨: ٣٦)، بل يقول في جسارةٍ أمام بيلاطس: "أنت تقول إني ملك. لهذا قد وُلِدتُ ولهذا أتيتُ إلى العالم لأشهد للحق. كل مَن هو من الحق يسمع صوتي" (يوحنا ١٨: ٣٧). فهو لم يفقد إدراكه برسالته، بينما نحن عندما يسيطر علينا الخوف، ننسى أننا أولاد الله الأحرار، ولذلك نسقط بسهولة. احتقار الإنسان لذاته هو خطأٌ قاتل يجب أن نكون على حَذَرٍ منه. إن كنا نحتقر أفعالنا لأنها ضد وصايا

الرب، فهذا مطلوب، ولكن أفعالنا ليست هي الذات ولا هي الكيان. كل أفعالنا – مهما كانت حسنة، أو رديئة– لا تساوي الكيان الإنساني. الكيان الإنساني أعظم من كل الأفكار وأكبر من كل الأفعال؛ لأن الكيان الإنساني، أي الذات هي "صورة الله". أنت أكبر من كل أفكارك، حتى المقدسة منها، وهذا ليس استعلاءً، إذ أن المقارنةَ ظلمٌ فاحش؛ لأن صورة الله لا تقارَن بأي شيء، فما بالك عندما تحتقر صورة الله بسبب أفعالٍ مذمومةٍ؟ ولذلك يحذِّرُنا يعقوب الرسول من احتقار الآخرين قائلاً: "به نبارك الله الآب وبه نلعن الناس الذين قد خُلقوا على شبه الله" (يع ٣: ٩). وبالطبع نحن نلعن الآخرين عندما نرى أعمالاً شريرة، ولكن هذه هي المصيبة الأكبر في حياتنا، وهي أن كيان الإنسان = أفعال وأقوال الإنسان، وعلامة (=) هي أساس المشكلة؛ لأن الإنسان أعظم من أن يوزَن بما يقول أو بما يفعل، وحتى إذا قلنا إن الرب يسوع حَمَلُ الله الذي جاء لكي يرفع **خطية العالم، وهي هنا حصنُ الموت، فهي ليست الأفعال الإنسانية، بل جذرها وهو الموت**. وغفران الخطايا هو تطهير الكيان من الأصل، من الجذر، من الينبوع، وهو لاحقٌ بالكيان.

لقد حصلتُ على أكبر تعزية في حياتي عندما قرأت عبارة القديس أثناسيوس الرسولي: "الشَّرُ عدم"؛ لأنه من اختراع عقل الإنسان. وتأملت أن كل أفعالي الشريرة مهما كانت، هي سبب أوجاع نفسي؛ لأنها جلبت عليَّ الموت والحزن وضياع **غاية الوجود، وهو أن أصير فعلاً "صورة الله ومثاله"**.

كانت كثافة الأفكار وكثافة الشرح جديدة جداً، ولم أسمعها من قبل، وكنتُ فرحاً، فقد بدا كلُّ شيءٍ واضحاً. لأن الحياة القديمة هي الطفيليات التي تنمو على حساب الأصل، وتحاول أن تخنق وتميت الأصل، وهو صورة الله.

ساد صمتٌ لفترةٍ، وخشيت أن أتكلم، ولكنه بادرني بسؤال:

قال: هل هذا الشرح غريب؟

فقلت: نعم، جديد.

قال: إننا يجب أن نعود إلى أصل كل الأشياء، وإلى أصل كل العقائد، وأصل كل الطقوس، ولا يجب أن نعيش -مهما كانت التكلفة- في تقوى شعبية تجعل من تعليم الرب دعوةً أخلاقية. هذه هي الضربة القاسية التي جاء بها عصر الإصلاح، أو بالحري جاءت مع عصر الإصلاح؛ لأن الذين ثاروا على كنيسة العصر الوسيط، كانوا يريدون العودة إلى التعليم الرسولي، وجاء الفشل بسبب عدم الوضوح في الرؤيا.

ما نراه عقلياً، يجب أن يكون في حدود ثلاثة معايير، أو داخل دائرة واحدة:

- **المعيار الأول**: العلاقة المستيكية بين الرأس والجسد، الرب وجسده الكنيسة؛ لأن هذه العلاقة تحتوي على كل ما أعطاه الرب لنا. هي من الرأس لكل الأعضاء.

- **المعيار الثاني**: التعليم ليس فكراً ولا نظريةً تُقال. التعليمُ هو علاقة شركتنا في الحياة الإلهية في الوسيط ربنا يسوع المسيح، وبنعمة وعمل الروح القدس. ولذلك، كل فكر مهما كان، يجب أن يتجه إلى شرح هذه العلاقة.

- **المعيار الثالث**: التحول الذي يحدث فينا، وهو ما أصبح الآن يسمى "التوبة"، لأن المعمودية تعطي لنا كأطفال، وقد **غاب من الوعي لا من الواقع** قوتها، فصارت التوبة -حسب الدرجي وافرام السرياني وباسيليوس وذهبي الفم- هي "المعمودية الثانية". ولكن خطر هذا التعليم هو الوقوع في بئر الخلاص بالأعمال، إذ يظن مَن يتوب إنه بالتوبة، سيدخل ملكوت السموات، ولكن ملكوت السموات، هو مُلكُ الله الآب على القلب هنا. ولذلك، يجب إصلاح الترجمة العربية؛ لأننا حسب الأصل القبطي لا نطلب "اِهدنا إلى ملكوتك"، فقد تمَّت البداية بالإيمان، ولكن "أعطنا الطريق إلى ملكوتك". لقد استنار قلبي عندما تعلَّمت اللغة القبطية، وأدركت أننا نطلب -بعد المجمع- أن نسير في ذات الطريق إلى الملكوت ⲡϣⲁⲣⲉϫⲓ ⲙⲡⲉⲕⲟⲩ

ⲉⲃⲟⲩⲛ ولكلمة ⲉⲃⲟⲩⲛ رنينٌ خاصٌّ عندي؛ لأن الطريق هو في داخل الملكوت، وليس هو بداية.

هذه المعايير الثلاثة هي دائرة التدبير، عليك أن تحيا داخلها؛ لأن خارجها يوجد أنبياء كذبة لا يعرفون أساسات التدبير.

سألته: هل يمكن أن نعود إلى المحبة؟ لأن الكلام واضح، وهو أنه لا يوجد بتر، بل تحولٌ، فكيف يحدث التحول بالمحبة؟

أجاب: من الأخطاء الشائعة أن بعض المعلمين -بسبب قلة الخبرة- يقولون للأخوة: لو كان المسيح هنا في نفس الموقف، فماذا سيفعل؟ وكأن المسيحَ شخصٌ يحيا خارجاً عنَّا لا فينا، وكأنه قد قيَّدَ حريتنا. هذا هو فكر المأسورين بالشريعة، ولذلك، لم يترك لنا الرب وصايا عن طريقة السير أو الملابس أو الأكل أو النوم أو الاستحمام أو حتى الكلام مع الآخرين. التشبُّه بالرب هو أول شيء: حِبُّوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا، وأيضاً بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حبٌّ لبعضكم البعض". وعندما يقول: "الذي عنده وصاياي ويحفظها، فهو الذي يحبني، والذي يحبني، يحبه أبي، وأنا أحبه، وأنا أظهر له ذاتي" (راجع يوحنا ١٤: ٣١). وما هي وصايا المسيح؟ هي أن نحفظ كلامه عن الآب، وعن المعزِّي. لذلك، أرجوك أن تقرأ جيداً أصحاحات ١٤، ١٥، ١٦، ١٧ من إنجيل يوحنا، وهي تسمى عندنا أصحاحات البارقليط في جمعة البصخة.

- تشبَّه بالرب في محبته؛ لأن هذا ينال معونة الرب نفسه، وعمل الروح القدس في القلب (رو ٥: ٥).

- تشبَّه بالرب بأن تكون حياتك ملكاً له كما كانت حياته ملكاً للآب.

- تشبَّه بالرب في أن تحمل صليبك وتتبعه. وحَملُ الصليب في أمانة التعليم

سيكون أصعب صليب على كثيرين.

والجزء الهام من سؤالك: كيف نتحول بالمحبة؟

والجواب: هو من اختباري، وعليك مراجعة الأسفار الإلهية في هذا الشأن.

أولاً: تقودنا محبة الذات إلى تفضيل الذات حتى على الرب نفسه، ومَن هو "مربوطٌ" بهذه السلسلة، يجب أن ينال "الحل" من الرب نفسه، وأن يَفُكَّهُ ويدمِّر القيد، أي الافراط في محبة الذات. يأتي عندي شبابٌ يافعٌ، لديه حميه وحرارة، ثم يبكون أحياناً بسبب الاستعباد للعادة السرية، وأقول للكل ولنفسي: ما يُسمى بالغريزة الجنسية هو نزوعٌ للبقاء وجذره كامن في محبة الإنسان لنفسه، فإذا أفرط الإنسانُ في محبته لذاته، وَجَدَ متعة الجسد شِبه سعادة أبدية.

وهنا صَلبُ الذات. لا عفةَ ولا بتولية حقيقية، ما لم يتم تعديل مسار محبة الإنسان لذاته. كيف ذلك؟ بثلاثة اتجاهات أساسية لا يمكن أن يكون لها بديل:

– **الاتجاه الأول**: هو هدف الحياة. مَن كان يسوعُ هو غايته، سوف يحارَب بالفكر، ولكنه يغلب إمَّا بالمعاناة أو الدموع أو الصبر أو بتأمُّل المصير الأبدي. **يسوعُ هو الدواء، هو الغاية، وهذا يُعدِّل اتجاه الحياة.**

– **الاتجاه الثاني**: هو قناعة الإيمان بأن الجسد هو للمسيح؛ لأن الخطية تجعل من الجسد أداةً يملكها العقل، ولكن علينا أن نكون على حذرٍ. أنا والمسيح جسدٌ واحدٌ، وحتى إن اخطأت، فهو لا يتنازل عن ملكية جسدي؛ لأن هذا الجسد هو ميراث قيامته. مَن كان جسده ملكاً مشتَرَكاً مع الرب، سوف يفكُ الربُّ قيده؛ لأنه بكل اشتياق يطلب هذه الحياة المشتَرَكة.

– **الاتجاه الثالث**: هو مراجعة الإدراك الدائم بأن إرضاء الذات ليس هو طريق البالغين، بل طريق الأطفال الرُّضَّع؛ لأن الأطفال الذين تركوا الرضاعة يتعلمون

كيف يختارون نوع الطعام الذي يحبونه، إمَّا بسبب اللون أو الطعم أو الرائحة أو لكل الأسباب الثلاثة. ولذلك، عندما نصل إلى البلوغ، أي التقدُّم في الحياة الداخلية والنمو، ندرك أن محبة الذات يجب أن تبقى، ولكن في إطار التجديد، أي أن تتجه لخدمة الآخرين، وإلى تفضيل ما هو أبدي.

أقول لك كلمة أخيرة: مَن يظن أنه تحرر من عادةٍ، عليه الحَذَر. وأنا لا أعني العادة السرية وحدها، بل كل العادات التي تكبِّلُ إرادتنا. والحَذَرُ هو أن الطفيليات العالقة بنا يجب أن "نخلعها"؛ لأن ما يصفه الرسول بولس باسم: "الإنسان القديم"، هو الإنسان المكوَّن من قناعات وعادات كلها مبنية ومؤسَّسة على الإفراط في محبة الذات. وهذه المحبة لا تنتهي إذا أدركناها، بل تُصلَب دائماً؛ لأن المصلوب الحي هو الطبيب الذي يعالج إفراط الذات الذي فينا.

كانت لديَّ فكرةٌ تلحُّ عليَّ بقوةٍ وخشيت أن أقطعَ الحوار بما لديَّ، ولكنه يبدو أنه أدرك بحسِّه الروحي ما يجول في خاطري، واستطرد في إيجازٍ شديد:

قال: إن السُّذَّج الذين لا زالوا يعيشون بذات الفكرة الفرعونية القديمة بأن الله لديه ميزان للأعمال يظنون إن الأعمال التي سوف يُحاسَب عليها الإنسان هي كم مرة كذبت؟ وكم مرة سرقت ... الخ، ولكن الحقيقة هي غير ذلك. **لا يوجد حسابٌ على الكم، ولكن حساب المحبة هو الحساب الدقيق.** السارقُ لا يُحب غيره، ولذلك يسرق. الكذابُ مفرطٌ في محبة ذاته، ولذلك تدعوه الكبرياء إلى التستر على خطاياه. القاتلُ يفرط في محبة ذاته، ولذلك حياته أهم من حياة غيره. الزاني يحب جسده، وهو آلة تحقيق الذات التي ضُربت بالأنانية، وهلم جرًّا. هؤلاء الذين فشلوا في المحبة، فشلوا في خلع الإنسان القديم، وفي صَلبِ الأهواء، وهم لذلك، جعلوا أنفسهم غرباء عن ملكوت الله .. دينونة المحبة تدخل إلى أعماق النفس، وحسناً من أجل الحق الأبدي، قال الرسول يوحنا الإنجيلي: "الذي لا يحب لم يعرف الله" (١ يوحنا ٤: ٨)، فكل ما هو ضد المحبة، هو ضد الحياة الإلهية.